الفصل الأول

موجز عن تاريخ الصين القديم

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

موجز عن تاريخ الصين القديم

مقدمة

لقد بدأت الصين الحصول على شكلها الحالي في عصور موغلة في القدم. فالنصر الذي أحرزه أول إمبراطور بها (كين شوانجدي) (Qin Shiuangdi)، وهو الاسم الغربي للصين والتى اشتق من أسرة كين (Qin). وكان ذلك العهد يمثل نهاية الدويلات المتحاربة (٤٧٥-٢٢١ ق.م)، حيث كانت هناك صراعات لا تنتهي بين عدد من الدويلات الصينية ، الأمر الذي كان يشبه إلى حدٍ بعيد مرحلة تالية بالنسبة للتاريخ الأوروبي وبداية أسرة كين (٢٢١-٢٠٦ ق.م). ولكن بحلول عام ٢٠٦ ق.م كانت حدود إمبراطورية كين (Qin)، تضم الكثير مما نراه اليوم كقلب للأراضي الصينية ، التي تمتد إلى فيتنام جنوبًا ثم تصل شمالاً حتى سور الصين العظيم بما في ذلك المنطقة كثيفة السكان بين نهرى اليانجتسي ، والنهر الأصفر .

وبعد سقوط أسرة كين ، استمرت الصين في الاتساع بسرعة أثناء أسرة هان (206) (Han ق.م – ٢٢٠ م) محققة امتدادها الواسع في الفترة (١٤١ – ٨٧ ق.م) حينما توغلت الجيوش الصينية حتى جنوب منشوريا ، والخليج الكوري في الشمال الشرقي، وجنوبًا ، وجنوب غربى حتى وصلت إلى شمال فيتنام. وخلال الألف سنة التالية ، استمرت الصين في التوسع نحو الشمال، والشمال الشرقي بما كان يتفق مع حدودها الطبيعية التي تُحيط بها غابات الإستبس في الشمال والشريط الساحلي من الجنوب والشرق والمناطق الجبلية في جنوبها الشرقي .

وكانت هناك هجرات مكثفة بعد تحسن المواصلات. كما مرت الصين حينذاك بقرون من الوحدة ساعدت على دعم الثقافة الموحدة – مما كان يسمى

في ذلك بالكتلة السكانية الكبرى . ورغم أن عمر أسرة " كين " كان قصيرًا ، فإنها تمكنت من تشييد ما يزيد على ٤٠٠ر٤ ميلاً من الطرق الكبرى الواسعة ، كما كان عليه الحال بالنسبة للإمبراطورية الرومانية .

وهكذا نجد دولة مركزية ذات نظام للحكم الجيد ، ترتكز على تعاليم كونفوشيوس (٥٥١ – ٤٧٩ ق.م) مما كان له أكبر الأثر على الصينيين سياسيًا وأخلاقيًا لفترة تزيد على ألفى سنة . كذلك نجد العادات المميزة التي تتعلق بالصين - بما في ذلك تفويض السماء ، ولغة تستخدم علامات ومقاطع مشتركة، وعقيدة ترتكز على عبادة الأجداد – قد تأكدت في ظل أسرة كين (Qin).

وأثناء الألف الأولى بعد الميلاد ، كانت الصين وشعبها تمتلك شعورًا قويًا غير معتاد بشخصية ثقافية متميزة . وكانت أحد أبرز هذه الخصائص المميزة في التاريخ الصيني ، أنه رغم غزوها من الشمال مرات كثيرة – خاصة من جانب المغول في القرن الثالث عشر ، والمانشو في القرن السابع عشر – فإن كافة هؤلاء الغزاة فيما عدا المغول – حينما يستقر بهم المقام يجُّدون في الحصول واكتساب العادات ، والقيم التي يمارسها الصينيون ، وأن يحكموا طبقًا لهذه المبادئ الصينية والمؤسسات الخاصة بهم، فكان ذلك دليلاً على المكانة التي كان يتمتع بها الصينيون، والاحترام التي تلقاه حضارتهم من جانب أضدادهم في الشمال[1].

وإن ما كان يوصف أحيانًا بنهضة الصين قد شهد تطوير عمليات الاختبارات، واختراع البارود الذي استعملته البنادق ، والطباعة ، وانتشار الكتب وتقدم كبير في الرياضيات، والفلك والجغرافيا . كذلك تم اختراع آلات ضخمة للخياطة . وعلى النقيض من ذلك ، فإن النهضة الأوروبية بدأت بعد قرنين من الزمان بعد نهاية أسرة سونج الشمالية (Northern Song). وكان انتشار الكتب في ذلك الحين سبيلاً إلى ظهور الطباعة على قوائم خشبية ، فضلاً عن الأعداد المتزايدة لمن يجري ترشيحهم للدخول في امتحانات للخدمة

(1) M. Jacques, When China Rules the World, The End of the Western World and the Birth of New Global Order (P.P. 73-74).

المدنية . كذلك كان هناك تقدم كبير في الرياضيات (وبالخصوص التطورات التي حدثت لعلم الجبر). كذلك ظهور عدد من المدارس ، مما يشهد على أن الصينيين كانوا أكثر الشعوب تعلمًا للقراءة والكتابة ، حين كانت أوروبا أقل درجة من هذا التقدم الصيني . وكان على أوروبا حينذاك أن تستعين بما أحرزه الصينيون بشكل مكثف ، بما في ذلك صناعة الورق ، والبوصلة ، وعجلات الغزل والطباعة. وكانت الصين بدرجة كبيرة أكثر الحضارات المتقدمة في منطقة شرق آسيا. كما كانت تمارس نفوذًا ضخمًا على جيرانها . وكان الكثيرون منهم بمثابة دول تابعة للصين تدفع الإتاوات للإمبراطور الصيني ، كما تعتز بتفوق الثقافة الصينية.

غير أنه بعد حلول عام ١٣٠٠م بدأ هذا الازدهار يخبو، ومهد ذلك لفترة من الركود لم يصل إلى منتهاه سوى بحلول عام ١٥٠٠ م. وكان الغزو المغولي علامة على انتهاء فترة حكم أسرة سونج الأكثر ازدهارا ، وتولى أسرة يوان Yuan(1368 -1279) ، وضم الصين إلى الإمبراطورية المغولية. وأصبح ذلك بمثابة وضع صعب ، حيث وجد الصينيون أنفسهم تحت حكم أجنبي، وانخفض وضعهم إلى درجة تسيء إلى ما اعتادوا عليه من شعور بالعزة والتميز. وكان هناك أكثر من سبب لبطء العملية الاقتصادية. فالديناميكية التي توسعت بها الصين من المناطق الوسطى ناحية الجنوب كانت تتضمن إضافة أراضي خصبة أخرى ، لكن هذه المنطقة بدأت تمتلئ بالمهاجرين من الشمال .

ولكن التقدم الكبير في مجال العلوم بدأ هو الآخر يشهد انحسارا شديدًا. لذلك وضعت أسرة " سونج " أملاً كبيرًا على أهمية التجارة والاتصال بالأجانب وبالخصوص مع اليابان ، وجنوب شرق آسيا ، ومع شبه القارة الهندية ، وحتى مع الساحل الشرقي الأفريقي . ولكن هذه التوجهات انقلبت في ظل أسرة منج Ming(1644 – 1368). ففى عام ١٣٧١ حظرت أسرة منج على سكان السواحل الإبحار بسبب التهديدات التي وضعتها الأسرة نظرًا لظهور القرصنة اليابانية.[1]

(1) M. Jacques, Ibid. (P.P. 77-79)

وخلال القرون الثلاثة التالية ، منعت مجموعة من القيود التجارة الفردية ثم التجارة الحكومية . وبحلول عام ١٧٥٧ لم يكن هناك سوى كانتون الميناء الوحيد الذي تمر من خلاله التجارة المشروعة .

وعلى العموم ، فإن الاختلاف الصارخ بين أوروبا والصين لم يكن فقط في حركة التصنيع في كل منهما ، وإنما كان كذلك في حجم كل منهما ، وأسلوب الحكم فيهما . واستمرت هذه الفوارق لألفى سنة على الأقل وكانت آثارهما هائلة . وذلك هو الذي يفسر لنا كيف تعذر على أوروبا فهم الصين . فبعد انهيار الإمبراطورية الرومانية ، لم تعد أوروبا تقع تحت حكم نظام إمبراطوري له القدرة على ممارسة السيطرة المركزية على قارة بأكملها. فقد كانت هناك سلطة سياسية لكل وحدة صغيرة الحجم – سواء في مساحتها أم في عدد سكانها. وحتى بعد إيجاد نظام الدولة الحديثة ، ووحدة ألمانيا وإيطاليا ، بقيت أوروبا تتسم بانقسامها إلى عدد من الدول . أما بالنسبة للصين ، فهى على النقيض من ذلك قد حافظت على نظام الدولة الإمبراطورية الذي ظهر بعد التنافس بين الدول. لذلك كانت فترة الدويلات المتحاربة في الصين التي إنتهت في القرن الثالث قبل الميلاد . لذلك فإنه بمرور الوقت ظهرت سلسلة من الأشكال المختلفة للدولة، بما في ذلك حالة أسرة المغول برئاسة أسرة يوان Yuan (1279 – 1368) ، والمانشور تحت أسرة كينج (١٦٤٤ – ١٩١٢)، ومختلف مراحل الحكم الأجنبي .

لقد بدأت المشكلات التي واجهت أسرة كينج (١٦٤٤-١٩١٢) تتصاعد حدتها في العقود الأولى من القرن التاسع عشر. وكان أولها هزيمتها على يد بريطانيا ، فيما سمى بحرب الأفيون الأولى (١٨٣٩-١٨٤٢)، ثم تصاعدت الصعوبات الاقتصادية أمام أسرة كينج (Qing) التي شهدت في الداخل سلسلة من الثورات، كما تمثلت في أربعة انتفاضات كبرى : تمثلت في تمرد إسلامي في إقليم يينان (Yunnan) في الجنوب الغربي من البلاد (١٨٥٥-١٨٧٣)، وتمرد إسلامي آخر من جانب الأتراك في الشمال الغربي من البلاد (١٨٦٢-١٨٧٣)، وتمرد آخر من جانب مجموعة ناين (Nien) في الشمال (١٨٥٣-١٨٦٨)، وانتفاضة التايبنج Taiping (1850-1864) . وكانت أخطر هذه الانتفاضات هى انتفاضة "التايبنج .

ولما اهتزت الثقة في النظام الإمبراطوري لانهزامه على أيدي البريطانيين في حرب الأفيون ، مع تكاتف فيضانات خطيرة ، وانتشار مجاعة أصابت البلاد فى الفترة (١٨٤٨-١٨٥٠)، أصبحت الظروف مواتية لحركات التمرد. وقد بدأت انتفاضة التايبنج في جنوب الصين ، حتى صارت تهدد بكين. ولقد ذهبت التقديرات إلى أن هذه الانتفاضة قد أسفرت عن مابين ٢٠-٤٠ مليون شخص الضحايا . وكانت هذه الانتفاضة مكونة من عناصر مناهضة لعنصر المانشو. وقد كانت أسرة كينج (Qing) ذاتها وافدة من منشوريا ، وظلت ما تمخضت عنه هذه الانتفاضات غير محسومة لعدد من السنوات. ولكن هذا التمرد تم سحقه بتجنيد جيوش جديدة من جانب أسرة كينج ، ودعم من جانب القوات البريطانية والفرنسية .

وعقب هزيمة انتفاضة التايبنج، فإن حرب الأفيون الأولى التي فشلت أسرة كنج في مقاومة المطالب البريطانية بالسماح باستيراد الأفيون الذي تتم زراعته في الهند ، فإن ذلك أدى إلى إبرام معاهدة نانكنج . وكانت هذه المعاهدة في حقيقة الأمر أول ما أطلق عليه بعد ذلك " بالمعاهدات غير المتكافئة " (Unequal Treaties)، والتي أسفرت عن فرض تعويضات ، وفقدان

هونج كونج ، وإيجاد أربعة " موانئ معاهدات "، تمتعت فيها بريطانيا بامتيازات خاصة.[1]

أزمة العلاقات الدبلوماسية بين الصين والعالم الخارجي

هناك عقبتان وقفتا في سبيل انفتاح الصين على العالم الخارجي ، وهما مراسم " الكاو - تاو"، ومسألة الاختصاص القضائي ، بمعنى مدى امتداد قوانين الدول الأجنبية وتطبيقها على المنازعات التي تتم في أراضي الصين ، والمفترض أن تخضع للتشريعات الصينية .

(١) مراسم الكاو-تاو

لقد حيرت مراسم " الكاو –تاو " الأجانب في استيعابها وهى المثول أمام الإمبراطور الصيني بكيفية خاصة وسبب هذه المشكلة رفض المسؤولين الصينيين الاعتراف بالدول الغربية على أنهم أنداد لدولة الصين . فقد ظلت الصين على مدار آلاف السنين مملكة مركزية تحتفظ بعلاقات دبلوماسية بكيفية ما مع دول كلها تابعة لها، أو دول تدفع لها الجزية . ورغم ما مُنيت به الصين من هزائم ، وما حل بها من كوارث، وما عقدته من معاهدات مهينة غير متكافئة في السنوات من (١٨٤٢-١٨٦٠) ، فقد رفض الصينيون مثل هذا الاعتراف . ولقد تمثل ذلك بصورة حية فيما أطلق عليه بمشكلة "الكاو –تاو " أى السجود أمام الإمبراطور لدى المثول أمامه.

ولقد سببت هذه المشكلة قدرًا كبيرًا من القلق للدبلوماسية الغربية منذ أول لقاء ، فقد أصرت الصين على أن يؤدي الدبلوماسيون الغربيون مراسم الكاو – تاو تأكيدًا لتفوقها على حكامهم . وتقضي هذه المراسم بأن يسجد الممثل الأجنبي ثلاث مرات أمام الإمبراطور . ولما كانت نظم الحكم في البلاد الأوروبية تعترف بالمساواة بين جميع الدول تطبيقًا لأحكام القانون الدولي العام بصرف النظر عن حجم الدولة ، فلقد كان من الطبيعي أن ترفض دول مثل فرنسا أو بريطانيا السماح لممثليها بالسجود ثلاث مرات أمام الإمبراطور .

(1) M. Jacques, Ibid. (P.P. 86-87).

على أنه ابتداءً من عام ١٨٧٣ أصبح المسؤولون الصينيون في هذا المجال يتجنبون طلبات المثول بين يدى الإمبراطور بالنسبة لممثلي الدول الغربية متعللين بأن الإمبراطور " تونج شيه " لم يبلغ بعد سن الرشد . فلما بلغ سن الرشد صار هناك تحول في مسألة المثول بأن يكون بالركوع ثلاث مرات بدلاً من السجود. وعلى آية حالٍ، فإنه لم يتم التصريح للمبعوثين الدبلوماسيين الأجانب بالمثول بين يدى الإمبراطور " كوانج – هو" حتى عام ١٨٩١ لأنه كان لا يزال قاصرًا، ولم يُمنح تصريح رسمي للمثول بين يدى الإمبراطور إلا في عام ١٨٩٣.[١]

(٢) الاختصاص القضائي

لقد كان المظهر الذي يجعل من الصين شبه مستعمرة يتجسد فيما سمى بحق امتداد القوانين (Exterritorialité) بالنسبة للقناصل الأجانب حين يقومون بالفصل في المنازعات بين رعاياهم المقيمين في الصين. ونجد بريطانيا على سبيل المثال قد زودت قناصلها في الصين بسجون خاصة، وشرطة مخصصة لهم. ولكن الولايات المتحدة فشلت في تعزيز مركز ممثليها القنصليين في هذا المجال ، وعرف بوجه عام عن القضاء الأمريكي في الصين سوء السمعة طيلة الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر .

وفي عام ١٨٦٤، تم إنشاء محاكم مختلطة في شنغهاى من أجل النظر في القضايا التي تشمل عناصر أجنبية ، وعناصر وطنية. فكان يجلس نائب عن الحاكم الصيني إلى جانب القاضي الأجنبي في الأحياء التي تتسم بسمة "الدولية" لتحري العدالة في القضايا التي يكون أحد أطرافها من أهل الصين. ولقد نصت اتفاقية " شيفو" لعام ١٨٧٦ على أن يطبق عند نظر هذه القضايا القانون الذي يمثله القاضي المنوط به إصدار الحكم في القضية ، وكانت جنسية المدعي عليه في هذه الحالة هى التي تحدد أى القوانين يكون واجب التطبيق .

---

(١) الشرق الأقصى ، موجز تاريخي تأليف: Chester Bain ، ص ٨٤.

المسلمون في الصين :

(١) كيف دخل الإسلام إلى الصين :

كانت واقعة القادسية (٦٣٦م) قد هددت حياة الإمبراطورية الساسانية العتيدة من أعماقها، ثم كان انتصار العرب في نهاوند (٦٤٢م) قد قوض دولة كسرى إلى غير رجعة. وفر يزدجرد، آخر الملوك الساسانيين إلى بلاد الصين، وكان ذلك من جهة أخرى نذيرًا للإمبراطور الصيني " تانج – جونج " في عصر أسرة " تانج " العظيمة – برياح الزحف العربي المنطلق من شبه الجزيرة العربية باتجاه منطقة الشرق الأقصى.

ولقد تمثل هذا الزحف الإسلامي في حملة قُتيبة من رجال الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق. فقاد قُتيبة قوة من العرب إلى خراسان، ثم إندفع إلى ماوراء النهر ضد الأتراك، وتقدم نحو بيكند، وفتح كلاً من مدينة صغد، ورامتين، وبخاري، وواردن، وكش، وسمرقند، وفتح قُتيبة هذه المدن وهو متجه صوب مدينة كاشغر أقرب مدن الصين إلى تلك المناطق. وأسس قُتيبة في مدينة بخاري مسجدًا معروفًا باسم مسجد قُتيبة عام ٧١٤م، ولا يزال هذا المسجد باقيًا حتى يومنا هذا.

ولقد عمد قُتيبة إلى إجازة ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية لما رأى صعوبة فهم معانيه بلغته الأصلية. وصار سكان بخاري يفهمون معاني القرآن باللغة الجديدة فهمًا كاملاً. ولقد أفادت هذه الطريقة – التي تعتبر من أحدث أساليب التبليغ إفادة عظيمة في نشر الإسلام في بلاد التتار العليا التي انتشر الإسلام منها في الأيام اللاحقة إلى تركستان الصينية ومنها إلى شمال غرب الصين.[١]

على أن قُتيبة لما فرغ من تنظيم سمرقند وبخاري زحف بجيوشه نحو خوقند، ثم توجه نحو الشرق عبر مضيق " تيرك " حتى دخل مدينة " كاشغر "

---

(١) بدر الدين حسن الصيني، العلاقات بين العرب والصين، صص ٢٦ – ٢٧.

فاتحًا في ٩٥هـ. ولما كان منهج العرب في غزواتهم أن يعرضوا على أهل البلاد إما الدخول في دين الإسلام ، أو دفع الجزية ، فقد فعل ذلك قُتيبة بن مسلم مع إمبراطور الصين " يوانج شونج" (٧١٣ – ٧٥٥م). وفي هذا يقول إبن الأثير ما ملخصه " .... في سنة ٩٦هـ (٧١٥م) غزا قُتيبة بن مسلم "كاشغر"، وحمل مع الناس عيالهم ليضعهم بسمرقند، فلما عبر النهر استعمل رجلاً على المعبر ليمنع من يرجع إلا بجواز منه ، ومضى إلى فرغانة ، وأرسل إلى شعب عصام من يسهل الطريق إلى كاشغر وهى أقرب مدن الصين ، وبعث جيشًا تحت قائد كبير إلى " كاشغر "، وختم أعناق أهلها، ثم أوُغل حتى قرب الصين ، فكتب إليه ملك الصين يقول: " ابعث إلىّ رجلاً شريفًا يخبرني عنكم وعن دينكم". وعمد قُتيبة إلى انتخاب عشرة من خيرة رجاله وأمر لهم بعُدة حسنة ، وألبسةٍ من الخز والوشى ، ومن الخيول وقال لهم :" إذا دخلتم عليه فأعلموه أنى قد حلفت لا أنصرف حتى أطأ بلادهم ، وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم. فساروا إليه وعليهم هُبيرة بين مشمرج ، وحضروا عند الإمبراطور ثلاث مرات . ولبسوا في كل مرة ملابس تختلف عن المرة الأخرى . ففى المرة الأولى لبسوا ثيابًا بيضاء تحتها الغلائل، وتطيبوا ، ولبسوا النعال والأردية ، وفي المرة الثانية ، لبسوا الوشى والعمائم ، والخز والمطارف ، وفي الثالثة ، شدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر، وأخذوا السيوف والرماح ، والقسى ، وركبوا خيولهم.

وتعجب إمبراطور الصين من هذا وسأل هُبيرة عن سر التنوع في لباسهم فقال :" زينا الأول هو لباسنا في أهلنا ، وفي اليوم الثاني، لباسنا أمام أمرائنا ، وفي اليوم الثالث كان زينا أمام عدونا". فقال الإمبراطور: " ما أحسن ما دبرتم دهركم"، فقولوا لقائدكم ينصرف، فإني قد عرفت قلة أصحابه – وإلا لبعثت إليكم من يهلككم. فردوا عليه بالقول :" كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادكم ، وآخرها في منابت الزيتون ، وأما تخويفكم إيانا بالقتل ، فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، ولسنا نكرهه ولا نخافه . وقد حلف قائدنا ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية ".

ورد الإمبراطور :" أن نبعث إليه تراب أرضنا فيطؤه ، وبعض أبنائنا فيختمهم ، وجزية يرضاها ، وبعث إليه بهدية وأربعة غُلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسن الجزاء. ولقد رضى قُتيبة بهدية الإمبراطور حيث كان قد بلغه خبر وفاة الوليد بن عبد الملك ، وبيعة أمراء دمشق لسليمان الذي تولى الخلافة الأموية لفترة وجيزة .

وعلى أية حالٍ ، فقد كان مقتل قُتيبة بن مسلم إيذانًا بضعف الإسلام فيما وراء النهر ، وإثارة الخلاف والشقاق بين صفوف المسلمين، وتوقفت فتوحات المسلمين إلى الشرق الأقصى بسبب مقتل هذا القائد الهُمام ، فتخلصت الصين من حملة العرب عسكريًا، ولكنها لم تستطع مقاومة الدين الإسلامي الذي كان ينتشر بسرعة إلى أواسط آسيا ، فدخل الصين ليستقر في مناطقها الغربية والشمالية .

بعد ذلك ، اقتصر النفوذ الإسلامي على مد يد العون إلى أحد أباطرة الصين في عهد أسرة تانج وهو الإمبراطور " سو–تسونج " (Su-Tsung) في عام ٧٥٤م. وأتى هذا العون من جانب الخليفة جعفر المنصور لقمع ثورة عارمة في داخل الصين سميت بثورة " آن–لوشان " (An-Lushan) كادت أن تقوض دعائم دولة " تانج " وتقضي عليها قضاءً مبرمًا . ومن المعلوم أن أبا جعفر المنصور قد تولى الخلافة بعد أخيه السفاح في عام ١٣٦هـ (٧٤٥م)، وتصادف قيام هذه الثورة في الصين لولا معونة الخليفة المنصور ، وإسهام شعب الأواغرة المسلمين في قمعها . وقد يكون من المناسب الإشارة إلى شعب الأواغرة من المسليمن الذين يتركز وجودهم في غربى الصين .

والأواغرة شعب جديد ، تفرع عن التتار في أوائل القرن الثامن الميلادي. ولقد أسلم رئيسهم بعد قدوم قُتيبة إلى تلك المنطقة بزمن قليل. وتُحدثنا المؤلفات الفارسية عن قصة إسلام رئيسهم هذا ، ويُدعى " أويغور" بن قراخان بأنه أسلم سرًا هو وأمه ، فغضب أبوه حين علم بذلك وحشد جيشًا لمقاتلته –إلا أن أنصار " أويغور " الذين اشتهروا بالأويغيرين صاروا شعبًا

قوى الشكيمة كوَّن علاقات سياسية مع الصينيين بعد العرب .

على أنه لما تم قمع ثورة " آن – لوشان" كما أسلفنا بصفة نهائية عام ٧٥٧م بفضل هؤلاء الأواغرة والعرب خَيرهم الإمبراطور الصيني " سوت – سونج" بين العودة أو الإقامة . وتروى بعض المصادر أن العدد الإجمالي لهذه الحملة كان يتألف من عشرين ألف مقاتل ، ولقد أورد الشيخ بيرم التونسي (المتوفى عام ١٨٨٩) في مؤلفه (صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار) " أن أصل المسلمين في الصين ، وهم ينيفون على الستين مليونًا من السكان والعساكر المسلمين الذين جلبهم ملك الصين في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور حيث ثارت عليه رعاياه ، فاستنجد بالخليفة على أن يؤدي معلومًا إذا أنجده ، فأرسل إليه أربعة آلاف من صناديد المسلمين ، وقهر بهم رعاياه ، وجازاهم على ذلك بجواز الإقامة في مملكته ..... الخ".[1]

(٢) تطور أوضاع المسلمين في الصين

كان من نتيجة دخول الإسلام إلى الصين سنة ٦٥١ في عصر أسرة "تانج" ، انتشار إقامة المساجد ، وإدخال اللغتين العربية والفارسية ، ووجود مصاهرة بين العرب والمسلمين مع أهل البلاد الأصليين حتى كونوا في نهاية الأمر نوعًا جديدًا من النسل لم يكن مألوفًا في الصين .

ومن يبحث عن أصول المسلمين في شمال الصين وغربها يرى هناك ثلاثة أجناس من المسلمين : جنس فيه الدم العربي ، وجنس آخر تجري في عروقه دماء الأواغرة ، وجنس ثالث فيه دم المغول . ويلاحظ أن أحسن هذه الأجناس صورة ، وأطولهم قامة هم الذين ينتمون إلى العرب ، ثم الذين يمتزجون بدم الأواغرة ، ويتميز هؤلاء بطول القامة ، وقوة الأعصاب ، وشموخ الأنف ، واستطالة الرأس ، وكثافة اللحية ، واتساع الجبين ، واتساع العيون ، وهم أقرب شبهًا بسكان شمال الهند ، وجنوب أفغانستان أو بخارى ، وهم أشد هذه العناصر تمسكًا بأحكام الإسلام ، وأكثرهم حبًا للغة العربية ، كما يوجد بينهم

---

(١) بدر الدين حسن الصيني، نفس المصدر ، ص ٤٠.

العلماء الكبار الذين يجيدون فهم الفقه والحديث .

وتجدر الإشارة إلى أن الإسلام بعد وصوله إلى الصين عام ٦٥١م تعرض لفترات من الصعود والهبوط منذ عصر أسرة " تانج" التي تولت مقاليد الحكم في الصين ٦١٧م (أى بعد النبوة بست سنوات). وأخذ الإسلام ينتشر رويدًا رويدًا في عصر أسرة "سونج" التي انقرضت عام ١٢٧٦م ، ثم قوى وأزدهر في عصر أسرة "يوان" أو ما سمى بعصر المغول في الفترة (١٢٧٧ – ١٣٦٧) وعصر " منج" في الفترة (١٣٦٨ – ١٦٤٢) أما في عصر المانشو (١٦٤٤ – ١٩١١) ، فقد لحقت بالمسلمين الكوارث ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت إذ هلك في هذا العصر عدة ملايين ، ومن تبقى منهم على قيد الحياة لم يتم السماح له بتنفس نسيم الحرية ، ووضعت أمامهم العراقيل نحو التقدم اقتصاديا، واجتماعيا ، ودينيًا ، ومعنويًا، فقد عمد طغاة ذلك العصر إلى كبت أنفاسهم ، وإن كانوا لم يحرموا من التردد على المساجد لأداء شعائر دينهم ، واستمر حال المسلمين على هذه الحال المظلمة حتى حدثت ثورة ١٩١١م التي أطاحت بحكم المانشو .

أما تاريخ إنشاء المساجد في الصين ، فإنه يرجع إلى عام ٧٤٢م ، وهى السنة التي أُسس فيها أول بيت من بيوت الله في مدينة " جانج – آن " (عاصمة الصين حينذاك). ثم تم بناء مسجد آخر في كانتون ، ثم ثالث في نانكين. وهذه المساجد الثلاثة بُنيت في عصر أسرة " تانج" إلا أن الطفرة التي يجدر الإشارة إليها في تقدم الإسلام كانت على وجه الخصوص في عصر المغول – إذ انتشر الإسلام بسرعة البرق في ولايات الصين حتى وقف المحللون حيارى في تعليل هذه الظاهرة . ويكفي أن بعض المصادر الوثيقة مثل " مؤلف جامع التواريخ " لرشيد الدين فضل الله ، أنه كانت هناك ثمانية ولايات من بين اثنتي عشرة ولاية من ولايات الصين في ذلك العهد كان عليها حكام مسلمون ، وذلك بخلاف وزير المالية الذي كان يُسمى شمس الدين الملقب " بالسيد الأجل" ، ووزير الحربية علي يحى الأيوغري .

وظل الإسلام مزدهرًا حتى بعد زوال الدولة المغولية من الصين ، ذلك أن كثيرًا من زعماء المسلمين قد اشتركوا مع الوطنيين في الإطاحة بالدولة المغولية ، ولم يتوقف مد الإسلام إلا بعد انتهاء عصر أسرة " منج" بسبب انعدام العوامل المشجعة التي توفرت في عصر المغول ، أو حتى في عصر "منج" بسبب نفور حكام المانشو من وجود المسلمين في الإدارات الحكومية واضطهادهم لهم.

ولقد أصبح الإسلام في الصين بعد عصر " منج" محرومًا من المؤثرات الخارجية مثل التجارة ، وزيارة السفراء –إلا أن إرادة الله الذي لا راد لقضائه ولا مُعقب لحكمه شاءت أن يحفظ ما تبقى من المسلمين هناك بسبب ازدياد نسلهم نتيجة تحريم الإسلام للمخدرات ، تلك المخدرات التي نشرتها بريطانيا بين أهالي الصين، والتي سُميت فيما بعد بحرب الأفيون (١٨٤٠ – ١٨٤٢) ، فلم يدمن المسلمون كغيرهم تعاطي الأفيون الذي تسبب في ضعف من سواهم من الصينيين الذين ضعفت صحتهم ، واضطربت أعصابهم وصاروا أقل نسلاً، وأتتهم الآفات من حيث لا يشعرون .

ومن الرحالة الذين زاروا الصين وكتبوا عن أحوال سكانها الرحالة الإيطالي "ماركو بولو" الذي أقام في الصين في الفترة من ١٢٧٥ – ١٢٩٩م، وقد دون هذا الرحالة في مذكراته :" إن غالبية السكان من مناطق الصين الشمالية الغربية من الوثنيين، ولكن بعضهم يعتنق الإسلام ، والبعض الآخر يعتنق المسيحية ".

أما الرحالة العربي " ابن بطوطة " فقد زار الصين في الفترة من ١٣١٤ – ١٣٢٥م . ويذكر :" أن جميع أهل الصين كفرة ، وإنهم يعبدون الأصنام ويحرقون جثث موتاهم كما يفعل الهندوس ، وأن إمبراطور الصين من التتار ، وهو من أحفاد "جنكيز خان" الذي غزا الدول الإسلامية ، وأشاع في ربوعها الخراب والدمار. وتوجد في كل مقاطعات الصين مدينة يتجمع فيها المسلمون، حيث يزاولون أعمالهم العادية. وللمسلمين في تلك المدن مدارس ومساجد خاصة بهم ، ولهم اعتبار مرموق في نظر إمبراطور الصين. وعندما يفد تاجر منهم على إحدى هذه المدن الإسلامية يُترك له الخيار بين الإقامة كضيف على

الأهل أو النزول في أحد الفنادق. ويبلغ عدد مساجد الصين ما يقرب من ٤٠٠٠ مسجد طبقًا لما ذكره الأستاذ " برمهول " في كتابه (Islam in China).[١] وتكاد تتفق غالبية الآراء على أن عدد المسلمين في الصين يزيد قليلاً عن عشرة ملايين نسمة يقطنون غالبيتهم في المقاطعات الشمالية الغربية ، والمقاطعات الجنوبية الغربية .

ومن المآثر التي يذكرها الصينيون للمسلمين أنه كثيرًا ما كانت المجاعات تجتاح بلاد الصين ، فيضطر الآباء إلى بيع أبنائهم في الأسواق ، فيسارع المسلمون إلى شرائهم وتربيتهم على الإسلام ويعاملونهم معاملة كريمة. وقد حدث ذلك مرارًا منذ القرن الثامن عشر . وفي عام ١٩٠٠م عندما لقى المسيحيون الاضطهاد على أيدي حركة "الملاكمين" في الصين عمد بعض المسيحيين إلى بيع أبنائهم ، فلم يجدوا من يتقدم لشرائهم غير المسلمين لدوافع إنسانية محضة.[٢]

المسيحية في الصين

لقد قدمت المسيحية إلى الصين منذ تاريخ موغل في القدم. ويرجع ذلك إلى أن الكنيسة المسيحية في منطقة بلاد الرافدين التي كانت تعتنق المذهب النسطوري (Nestorius) الذي انفصل عن روما ، كانت تفرض سيطرتها على منطقة آسيا الوسطى، وفي عام ٦٣٥ م وصل إلى مدينة تشنجا نجان (Tchang - Nagan) التي كانت عاصمة إمبراطورية أسرة تانج أحد الرهبان الذي قام بتأسيس كنيسة في بلاد الصين تحت حماية الحاكم الصيني (Tai-Song) وأمكن لهذه الكنيسة أن تهيمن مذهبيًا على منطقة آسيا الوسطى .

وهناك نقوش محفورة على أحد الأحجار في" تشنجا نجان" مؤرخة ٧٨١م تحكي قصة المجتمع النسطوري الذي أسدى إلى أباطرة أسرة "تانج" مآثر عديدة . على أن البابا نيقولا الرابع ، لما علم بأمر وجود المسيحيين في تلك

---

(١) محمد محمود زيتون ، الصين والعرب عبر التاريخ، ص ٥٢.

(٢) محمد محمود زيتون ، نفس المرجع ، ص ٥٢.

البقعة بادر بإرسال أحد رهبان الفرنسيسكان يُدعى "جان مونت كورينو " (Montecorino)، الذي قام بتأسيس كنيستين أخريين ، وقام بتعميد ٤٠ عبدًا تم شراؤهم لهذا الغرض، ثم قام هذا الراهب بعد ذلك بإدخال ما يزيد عن عشرة آلاف من التتار في العقيدة المسيحية .

وبعد انقضاء ثلاثة قرون من ذلك التاريخ قام مبشرو الجزويت بجهود تبشيرية على يد المبشر المشهور " فرانسوا زافييه" (Francois Xavier) وقد توفى فرانسوا في أحد الجزر بالقرب من " كانتون " دون أن يتمكن من أن يدخل في الدين المسيحي من بين الصينيين سوى شخص واحد هو خادمه أنطونيو.[1] ولكن في عام ١٥٨٢ قدم اثنان من المبشرين المسيحيين هما " فالجاني ، وروجيري" إلى الصين مُتخفين في زى الرهبان البوذيين حاملين بعض الهدايا ، وتمكنا من بناء كنيسة بعد أن تمكنا من الحصول على مدينة صغيرة في مدينة " تشاو – تشو"، ثم ما لبثا أن لحق بهما " ماتيو ريشي" (Matteo Ricci) الذي قرر الوصول إلى بكين ، والتي وصلها في عام ١٥٩٨ حاملاً معه مجموعة من الساعات والآلات العلمية.

ولقد تمكن "ريشى" في عام ١٦٠٠ من الحصول على إذن بالإقامة في بكين حيث عاش لمدة عشر سنوات ، وما لبث أن اقتفى أثره عدد آخر من المبشرين الجزويت من الألمان والأسبان. وكان أسلوبهما هو العمل على نشر المسيحية دون مهاجمة الكنفوشية من الأمام ، وتبريرهم لذلك أنه ليس هناك بالضرورة تعارض بين المذهبين حيث قال أنه يمكن النظر إلى شعائر الأسلاف التي ترتكز عليها الكنفوشية بمثابة نوع من المراسم لا علاقة لها بالعقيدة الدينية، ومن ثم يمكن التوفيق بين الكنفوشية والمسيحية.

وفي بداية القرن التاسع عشر ، استقرت بعض الشركات التجارية في بعض الموانئ التجارية الصينية ، فكان ذلك سبيلاً لتهيئة وضع أفضل للمبشرين ، لمباشرة نشاطهم. ومن ذلك أنه قدم إلى كانتون أحد المبشرين البروتستانت،

(1) De Beauvoir. S. La Longue Marche. P.483.

وهو " روبرت موريسون" عام ١٨٠٧، وحصل على وظيفة مترجم في شركة الهند الشرقية، وظل في هذه المدينة لمدة سبعة وعشرين عاماً ترجم خلالها إلى اللغة الصينية عددًا من الكتب المسيحية، ولكنه لم يتمكن من إدخال أكثر من عشرة من الصينيين إلى الديانة المسيحية. (١)

التشتت العنصري وأثره في إعاقة نهضة الصين الحديثة

من خلال عملية للمقارنة بين العملاقين الصيني والياباني نرى ظاهرة أثرها الواضح في مسيرة الصين نحو نهضتها الحديثة بخلاف الحال بالنسبة لليابان وهذه الظاهرة هى ظاهرة تشتت العناصر السكانية بالنسبة للصين. فقد جابهت الصين مشكلة تماسك عناصرها السكانية، وخاصة ما عُرف في التاريخ الصيني باسم "الأقليات الوطنية "، إذ كان من بين نحو ٦٠٠ مليون نسمة يمثلون تعداد سكانها في الماضي تنتمي الأغلبية الكبرى إلى عنصر " الهان" (Han)، ولكن كانت هناك مجموعة يبلغ عددها نحو٣٥ مليون نسمة في تلك الآونة قدموا من مواطنهم الأصلية في المناطق القاحلة ، والأكثر صعوبة. وكانت تجري معاملتهم بدرجة ما من الاحتقار من جانب العناصر الصينية الأخرى.

وكان "الهان" يعتقدون أن هناك ثلاثة كائنات حية تعيش في الصين هى: " الهان"، والبرابرة (Barbares)، والحيوانات. وكان المغول والأوجور (Ouighours)، و"الياو" ، وأهل التبت من البرابرة . وهذه الأقليات في رد فعلها إزاء هذا الكبت الواقع عليهم في ظل كافة نظم الحكم الصيني شكلت جيوبًا للمعارضة والتمرد. فكان هناك ٤٤ جيبًا من هذه الجيوب تتحدث ١٣ لغة، منها ٤ لغات مكتوبة فقط. ومن هذه الجيوب المعارضة ، كان هناك ١٨ جيبًا في المنطقة الشمالية الغربية من البلاد. وتضم مقاطعة "سينكيانج" وحدها ١٢ جيبًا ، كما تضم المنطقة الشمالية الشرقية من الصين ٢٠ جيبًا يحتوى ١٢ مليونًا من البشر. أما بقية هذه الجيوب ، فهى مبعثرة في طول الصين وعرضها،

(1) De Beauvoir.S. Ibid. P.386.

ويقطن البعض الآخر في أماكن كانوا قد نزحوا إليها، واختلطوا بعناصر " الهان". ومن ناحية أخرى نجد اللهجات المستخدمة بين أهل الشمال تنتمى إلى مجموعة لغات مختلفة هى " الألتاى" (Altai)، كما أن أغلبية هذه الشعوب ظلت تحت نظام قبلي بدائي ، في حين أن نظام الرق لم يكن لوقت قريب قد تم إلغاؤه تمامًا على الأقل في أعقاب الحرب العالمية الثانية. (١)

وأبرز المناطق التي تضم هذه الأقليات، هى منطقة الشمال الغربي، إذ نجد مقاطعة سينكيانج التي يسكنها بالأخص الأوجور ، والمغول قد قامت بثورة ضد "تشيانج كاى شيك " عام ١٩٤٤ ، وأقامت جمهورية مستقلة ، وأسمت نفسها " جمهورية تركستان الشرقية" . ولكن هذه الجمهورية انضمت بعد ذلك إلى الصين الشيوعية عام ١٩٥٠، واحتلها الجيش الشيوعي الصيني سلميًا. وهذه المقاطعة الواسعة التي تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة فرنسا تضم نحو ٤ر٧٨٠ر٠٠٠ نسمة. وكذلك سوف نجد أن على الصين في مستهل نهضتها الحديثة أن تسعى إلى إحكام قبضتها على هضبة التبت التي يرجع تاريخها مع الصين إلى القرن التاسع الميلادي، حيث كان أحد ملوك التبت قد تزوج من إحدى أميرات أسرة "تانج" الصينية".

هذا بالنسبة للصين بعكس ما تمتعت به اليابان بدرجة عالية من التجانس العنصري بصرف النظر عن عدد السكان حيث تشكل في اليابان في مستهل نهضتها دخولها بسرعة ملفته للنظر إلى العصور الحديثة فيما أطلق عليه " الأوليجاركية" العسكرية والمالية الضيقة" متجهةً كلها في اتجاه واحد ، وقد ساعد على ذلك بدون شك التجانس بين عناصر الأمة من ناحية، وعدم تشتتها من ناحية أخرى.

(1) De Beauvoir.S. Ibid. P.P. 351-353.

الفترات الكبرى للصين الإمبراطورية

زهو الشرقية (Eastern Zhou)	٧٧١–٢٥٦ ق.م.
الدول المتحاربة (Warring States)	٤٠٣–٢٢١ ق.م.
كين (Qin)	٢٢١–٢٠٦ ق.م.
هان (Han)	٢٠٦ ق.م.–٢٢٠م
تانج (Tang)	٦١٨–٩٠٧
سونج الشمالية (Northern Song)	٩٦٠–١١٢٥
سونج الجنوبية (Southern Song)	١١٢٧–١٢٧٩
يوان (مغول) (Yuan - Mongols)	١٢٧٩–١٣٦٨
منج (Ming)	١٣٦٨ - ١٦٤٤
كنج (مانشو) (Qing - Manchu)	١٦٤٤ - ١٩١٢

obeikan.com